



الذِّكْرُ

مَفَاهِيمُهُ وَفَضَائِلُهُ وَآثَارُهُ

{إعداد: د. مُحَمَّد عَمَارَة}





في ظلال العبادة

الذِّكْرُ

حقيقته، وآياته، وأحاديثه، وأذكار النبي ﷺ والصحابة
والتابعين، وفوائده وفوائد ورده

﴿ أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾



المقدمة

الحمد لله الذي جعل ذكره طمأنينة القلوب، وأنساً للمستوحشين، وأنساً للمنقطعين إليه، وجعل مجالس الذكر رياضاً من رياض الجنة في الأرض، والصلاة والسلام على من كان لسانه رطباً بذكر ربه في كل أحواله، قائماً وقاعداً وعلى جنبه، سائراً وراكباً ونازلاً، لا يشغله عن ذكر الله شاغل، وعلى آله وصحبه الذين اقتدوا به فكانوا أهل ذكر لله كثيراً، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فإن الذكر هو الروح التي بها تحيا القلوب، وهو الغذاء الذي به تسكن النفوس، وهو الحصن الذي يعتصم به العبد من وساوس الشيطان وخطرات النفس، وقد جعله الله سبحانه عبادة لا تنقطع بمكان ولا زمان ولا حال، فلا وضوء لها ولا استقبال قبله، يذكر العبد ربه قائماً وقاعداً ومضطجعاً، في سفره وحضره، في صحته ومرضه، في غناه وفقره، فهي أسير العبادات على الجوارح وأعظمها أثراً في القلب.

وقد جاء هذا الكتاب استكمالاً لسلسلة "نداء من القرآن"، سائراً على نهجها في التوثيق والتحقيق: آيات القرآن الكريم موثقة بأرقامها من المصحف، والأحاديث النبوية مما صح في الصحيحين أو حسنه أهل العلم من غيرهما مع بيان درجته ومصدره، لا نقول على الله ورسوله إلا ما نُقل وثبت. جمعنا فيه أهمية الذكر ومكانته، وطائفة من آيات الذكر في كتاب الله، وأحاديث نبوية في فضله، وكيفيته وآدابه، وأذكار النبي ﷺ في يومه وليلته، وشيئاً من هدي الصحابة والتابعين في الذكر، وفوائده التي عدها أهل العلم، وثمره المداومة عليه ورداً لا ينقطع.

نسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، نافعاً لكتابه وقارئه، وأن يجعلنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.



الباب الأول: أهمية الذكر ومكانته

الذكر هو أصل كل عبادة وثمرتها، وهو الغاية التي شرعت من أجلها كثير من العبادات الأخرى؛ فالصلاة تُقام لذكر الله، والحج والصيام فيهما ذكر، بل الجهاد والمعاملات كلها ينبغي أن تكون مقرونة بذكر الله. وقد امتاز الذكر عن سائر العبادات بأنه لا يشترط له طهارة ولا استقبال قبلة ولا وقت محدد، فهو عبادة العمر كله.

الذكر غاية العبادات

إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾

سورة طه

انظر كيف افتتح الحق سبحانه كلامه لموسى بهذه الوصية العظيمة، فجعل الصلاة إنما تُقام "لذكرى"، فكأن الجوارح كلها تنحني، والركبتان تُثنَّيان، والوجهة تُلصق بالتراب، من

أجل أن يحضر القلب لحظة واحدة بين يدي من خلقه. وما أعجب هذا! أن تكون العبادات الظاهرة كلها قشوراً حول لبّ واحد هو الذكر، وأن يكون العبد في غفلته أشبه بمن يحمل الجوهرة في صندوق مغلق ولا يفتحه أبداً ليرى بريقها.

أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى
عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ

﴿45﴾

سورة العنكبوت

"ولذكر الله أكبر"؛ كلمة موجزة تحمل من المعاني ما تعجز العبارات الطويلة عن حمله. فكل ما في الوجود من عظمة وكبرياء وسلطان، الجبال الراسيات، والبحار الزاخرات، والنجوم السابحات، كل ذلك دون ذكر الله في الميزان. فإذا استحضر القلب هذا المعنى صغرت في عينه الدنيا بأسرها، وهانت عليه متاعها، إذ كيف يكبر شيء في نفس من عرف أن أكبر الأشياء كلها هو أن يذكر ربه؟

الذكر طمأنينة القلوب

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

﴿28﴾

سورة الرعد

ما أكثر ما يطلب الناس الطمأنينة في غير موضعها! يطلبونها في المال فيزدادون قلقاً على جمعه وخوفاً من ضياعه، ويطلبونها في الجاه فتتقاذفهم أمواج المنافسة، ويطلبونها في اللذة فتتركهم أعمق جوعاً مما كانوا. ولو تأمل أحدهم قليلاً لوجد أن القلب البشري خُلق على مقياس لا يملؤه إلا خالقه، فكل ما دون الله في هذا الفراغ سراب يُظن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. أما ذكر الله، فهو الماء الحقيقي الذي يروي هذا الظم الأزلي في النفس، وحده دون سواه.

الذاكرون في صحبة الله ورعايته

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿152﴾

سورة البقرة

تأمل هذا التناظر العجيب: "فاذكروني أذكركم"؛ كأن العبد الضعيف الفاني يقف أمام مرآة الملك الحي القيوم، فإذا تحرك ساكن الذكر تحرك في المرآة ما يقابله من عناية وذكر

إلهي لا يشبه ذكر المخلوق شيئاً. وهذه سنة ماضية في كل معاملة بين العبد وربّه: من أقبل أقبل عليه، ومن تقرب شبراً تقرب الله منه ذراعاً، لا حاجة من الغني سبحانه إلى ذكر عبده، بل لفرط كرمه ورحمته بضعف هذا العبد وحاجته إليه.

«يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»

رواه البخاري ومسلم (حديث قدسي)

«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت»

رواه البخاري

عاقبة الغفلة عن الذكر

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿124﴾

سورة طه

وصف الله حال المعرض عنه بـ"المعيشة الضنك"، ولم يقل الفقر ولا الشقاء، بل الضيق؛ وشتان بين من يملك سعة الرزق وضيق الصدر، وبين من يملك قلة الرزق وسعة الصدر. فكم من غني تراه في قصره كالسجين في زنزائته، تحاصره الوسواس من كل جانب، وكم من فقير ذاكر يعيش في كوخه أوسع مما يعيش الملوك في قصورهم؛ لأن سعة الصدر لا تُشتري بالمال، وإنما تُنال بالقرب من مسبب الأسباب.

وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ

﴿36﴾

سورة الزخرف

ما أَرهَب هذه الآية! "ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين"؛ فالقلب لا يبقى فارغاً أبداً، إما أن يملأه ذكر الرحمن فيسكن ويطمئن ويستضيء، وإما أن يُترك خالياً فيسارع الشيطان إلى ملئه بالوسواس والشك والخيرة. وكأن القلب أرض لا تُترك بوراً، فإن لم تُزرع بالإيمان زُرعت بالشوك، وما بين الحالين واسطة.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ

الْفَاسِقُونَ ﴿19﴾

سورة الحشر

"فأنساهم أنفسهم"؛ وأي عقوبة أشد من أن يُنسي الإنسان نفسه؟ أن يفقد الصلة بحقيقته، فيصبح غريباً عن ذاته وهو لا يشعر، يركض خلف كل سراب ظاناً أنه سيجد فيه ما يعرفه بنفسه، فلا يزداد إلا بعداً عنها. ولا سبيل إلى معرفة النفس معرفة حقيقية إلا بمعرفة من خلقها، ولا سبيل إلى تلك المعرفة إلا بذكره؛ فمن نسي ربه نسي أعز ما يملك، ومن ذكره وجد نفسه في ذكره.



الباب الثاني: آيات الذكر في القرآن الكريم

وردت مادة "الذكر" ومشتقاتها في القرآن الكريم في أكثر من مئتي موضع،
ننتخب منها طائفة موزعة على محاورها الرئيسة.

أولاً: الأمر بالذكر الكثير

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا

﴿42-41﴾

سورة الأحزاب

لم يقل "اذكروا الله" وحسب، بل أضاف "ذكراً كثيراً"، وكرر معنى الكثرة بالتسبيح بكرة وأصيلًا؛ فكأن الله سبحانه يعلم ضعف هذا القلب البشري وسرعة سهوه، فيأمره بالتكرار لا لأنه سبحانه بحاجة إلى كثرة الذكر، بل لأن القلب لا يثبت على حال، وكل ذكره

جديدة كأنها ضربة إزميل على حجر النسيان الذي يتراكم على القلوب صباح مساء، فلا يزيله إلا الذكر المتكرر الدؤوب.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿45﴾

سورة الأنفال

في أشد اللحظات هولاً، حين تتقابل الصفوف وتلع السيوف وتشتد القلوب خفقاناً، يأتي الأمر الإلهي: اذكروا الله كثيراً. وكأن الله يعلم عباده أن أعظم سلاح في المعركة ليس الحديد، بل ذلك الحضور القلبي الذي يهب الجندي سكينه لا يعرفها من خلا قلبه من ربه؛ فالسيف يقطع الأجساد، والذكر يحصن الأرواح، ولا نصر حقيقياً بغير الثاني وإن تحقق الأول.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿9-10﴾

سورة الجمعة

بين نداء الجمعة وانتشار السعي، بين المسجد والسوق، تمتد خيوط الذكر لترتبط ما يبدو منقطعاً في حياة الإنسان: عبادته ومعاشه. فليست الحياة قسمين متنافرين، دين هنا ودنيا هناك، بل هي نسيج واحد يمكن أن يُنسج كله بخيط الذكر، فلا يبقى للعبد فراغ ينسى فيه ربه، لا في سجوده ولا في تجارته.

ج
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾

سورة المنافقون

خصّ الله بالتحذير أعزّ ما يملكه الإنسان: ماله وولده؛ لأن الفتنة لا تأتي غالباً من جهة المكروه بل من جهة المحبوب. فالمرء يحترس من عدوه بفطرته، لكنه قلماً يحترس من محبوبه، وقد يغرق في حبه حتى ينسى من وهبه إياه. وكأن الآية تنبيه رقيق: احذر أن يكون أحب الناس إليك حجاباً بينك وبين أحب الأسماء إلى قلبك.

ثانياً: صفات الذاكرين لله

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا
سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿190-191﴾

سورة آل عمران

ما أجهل أن يجتمع في قلب واحد نظران: نظر إلى السماء الشاسعة بنجومها، ونظر إلى
الداخل بذكر خالقها؛ فلا يكون التفكير في الكون علماً بارداً يمر على العقل ولا يمس
القلب، بل يتحول بالذكر إلى عبادة تهتز لها الجوارح وتتشعر لها الأبدان. هذا هو العالم
الرباني الذي وصفه الغزالي بأنه من نظر إلى الكون فرأى فيه صنعة الصانع لا صدفه
عابثة، فازداد بكل نجم يقظة، وبكل مخلوق ذكراً.

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالْقَنَاتِ
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ
وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ

وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظِينَ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ
أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿35﴾

سورة الأحزاب

سبع عشرة صفة تُعدّ في آية واحدة، حتى إذا ظننت أن القائمة قد اكتملت، ختمها الحق بالذاكرين والذاكرات؛ وكأن كل تلك الصفات السابقة -الإسلام والإيمان والقنوت والصدق والصبر والخشوع والصدقة والصيام والحفظ- إنما هي أغصان تنفّرع من جذر واحد هو الذكر، أو ثمار تنوّج شجرة غرسها الذكر في القلب أولاً، فمن لم يذكر لم تستقم له سائر تلك الصفات على وجهها الأكل.

فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ
وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿36﴾

﴿37﴾

سورة النور

رجال في المتاجر، أيديهم على موازين البيع والشراء، وقلوبهم معلقة بذكر الله؛ فهذا هو الزهد الحقيقي الذي لا يعني ترك الدنيا، بل ألا تملك الدنيا القلب. وقد قال الرافعي في

معنى قريب: ليس الزاهد من خلت يداه، بل من خلا قلبه من التعلق بما في يديه. فتاجر يذكر الله بين صفتين أعبد عند الله من زاهد ترك التجارة وتفرغ لكنه لم يذق طعم هذا الذكر المتخلل بين الحركات.

ثالثاً: الأمر بذكر الله في أحوال خاصة

وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ
بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿205﴾

سورة الأعراف

"في نفسك"؛ ذكر لا يسمعه إلا الله، حديث سري بين العبد وربّه لا يطلع عليه أحد؛ وفي هذا من الحلاوة ما لا يوصف، فهو لقاء خاص لا يشوبه رياء ولا يخالطه نظر الخلق. وقد قال ابن القيم إن أعلى أنواع الذكر ما كان بهذه الصفة: خفياً، متضرعاً، ممزوجاً بالخوف؛ فذلك الذكر الذي يشبه سرّاً يبته العبد لمن يعلم السر وأخفى، لا خطبة يلقيها أمام الملاء.

ج
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي
لَأُقَرَّبَ مِنْ هَذَا رَشْدًا ﴿24﴾

سورة الكهف

كل إنسان ينسى، وهذه سنة في تكوينه لا يُلام عليها؛ لكن الآية تعلّمه ماذا يفعل حين يذكر أنه نسي: يذكر الله. فيتحوّل عثار الذاكرة، بدل أن يكون سبباً للحسرة والانشغال بالنفس، إلى بوابة أخرى للعودة إلى الله؛ وكأن كل نقص في الإنسان يمكن أن يُستدرك بذكره صادقة، فلا يبقى للشيطان من نسيانه شيء يتكئ عليه.

قَدْ
فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا
فَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
خَلْقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ
حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ
سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي

يَوْمِينَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿200-203﴾

سورة البقرة

كان أهل الجاهلية يقفون بعد نسكهم يتفاخرون بأبائهم وأجدادهم الغابرة، فجاء الأمر الإلهي ليقرب هذا المشهد رأساً على عقب: اذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً. فبدل أن ينشغل القلب بأجداد القانين، يُشغل بذكر الباقي الذي لا يفنى، وفي هذا درس بليغ لكل من يتفاخر بما لا يبقى: أن الذكر الحقيقي لا يكون إلا لمن يستحق الخلود في القلوب، وهو الله وحده.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿2﴾

سورة الأنفال

"وجلّت قلوبهم"؛ ليس خوفاً ليشل الحركة، بل رعشة تشبه رعشة العاشق حين يُذكر له اسم محبوبه. فالمؤمن الصادق لا يستطيع أن يسمع اسم الله بارداً غير مكترث، بل يهتز له مكانه كله كما تهتز الأوتار حين تُمس بيد عازف ماهر، وهذا الوجل بعينه علامة الحياة في القلب، إذ لا يهتز إلا القلب الحي، أما القلب الميت فلا يحركه ذكر ولا يهزه اسم.

وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿8﴾

سورة المزمل

"وتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا"؛ كلمة تحمل معنى الانقطاع الكلي، كأن العبد يقطع كل الحبال التي تربطه بغير الله ليربط نفسه بحبل واحد لا ينقطع. وقد شبه الغزالي هذا المقام بمن يفرغ إناءه من كل شراب ليملاه بشراب واحد صافٍ؛ فلا يجتمع في القلب الواحد انقطاع تام إلى الله وتعلق تام بسواه، بل لا بد من تفرغ يسبق الامتلاء.

وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿25﴾

سورة الانسان

بكرة وأصيلًا؛ طرفا النهار، حين تستيقظ الروح من سباتها وحين تودّع النهار مقبلة على الليل. وكأن الحق سبحانه يعلم عباده أن يجعلوا لذكره حارسين على أطراف يومهم، يستقبلونه بذكر ويودّعون بذكر، فلا يمر يوم كامل دون أن يُختم بطرفيه بحضور القلب بين يدي خالقه.

وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿15﴾

سورة الأعلى

"فذكر اسم ربه فصلی"؛ ترتيب لطيف بين الذكر والصلاة، كأن الذكر هو النبع والصلاة هي النهر الذي يجري منه؛ فن لم يذكر لم يجد في قلبه ما يدفعه إلى الصلاة بحق، ومن ذكر وجد الصلاة تنبع من ذكره انبثاقاً طبيعياً لا تكلفاً وعناء.

رابعاً: القرآن ذكر

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾

سورة الحجر

سمى الله كتابه "الذكر"؛ فهو تذكرة تُعيد القلب الشارد إلى أصله، وتوقظ الفطرة النائمة تحت ركام الغفلة والعادة. وقد قال ابن القيم إن القرآن طبيب القلوب، وكما لا يستغني المريض عن طبيبه، لا يستغني القلب عن كتاب ربه؛ فتلاوته أعظم أبواب الذكر وأوسعها، إذ يذكر العبد فيها ربه بكلام ربه لا بكلام نفسه، وشتان بين البابين.

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ^ج لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ^ج فَوَيْلٌ
لِّلْقَسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ
الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

ثُمَّ تَلِينَ جُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ
مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿23-22﴾

سورة الزمر

قشعريرة تسري في الجلد أولاً، ثم يعقبها لين يغشى القلب والجلد معاً؛ وصف بديع لحال المؤمن الصادق أمام كلام الله، يبدأ برهبة الجلال فينتهي بأنس الجمال. وقد صور الرافي هذه الحال بأنها أشبه بغيمة تهطل رعداً أول الأمر ثم تنهمر مطراً هادئاً يروي الأرض العطشى؛ فالخشية الأولى ليست إلا مقدمة لطمأنينة تليها، والقلب الذي لم يقشعر لم يبلغ بعد ذلك اللين الموعود.



الباب الثالث: أحاديث نبوية في فضل الذكر

اخترنا من الأحاديث ما صح في الصحيحين أو أحدهما، أو حسّنه أهل العلم من غيرهما، مع الإشارة إلى الدرجة والمصدر.

«سبق المفردون. قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»

رواه مسلم

«ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليكم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى. قال: ذكر الله تعالى»

رواه الترمذي وابن ماجه (حسّنه الترمذي)

«ما جلس قوم يذكرون الله عز وجل إلا حَفَّتْهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»

رواه مسلم

«من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مئة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مئة حسنة، ومحيت عنه مئة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي»

رواه البخاري ومسلم

«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»

رواه البخاري ومسلم

«من قال حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده، مئة مرة، لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه»

رواه مسلم

«لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»

رواه مسلم

«أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»

رواه الترمذي والنسائي (حسنه الترمذي)

«ألا أخبرك بكلمة من كنز تحت العرش؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»

رواه البخاري ومسلم



الباب الرابع: كيفية الذكر وآدابه

الذكر عبادة قلبية لسانية، تكون على أكل وجوها إذا اجتمع فيها حضور القلب مع نطق اللسان، وقد أرشد الشرع إلى جملة من الآداب التي يُستحب مراعاتها:

١- الإخلاص لله وحده: فلا يُقصد بالذكر رياء ولا سمعة، بل ابتغاء وجه الله والدار الآخرة.

٢- حضور القلب مع اللسان: فالذكر الأكل ما واطأ فيه القلب اللسان، وقد قال ابن القيم إن الذكر الغافل، وإن كان فيه أجر، إلا أن الذكر مع حضور القلب أعظم أثراً وأتم ثواباً.

٣- الطهارة مستحبة لا واجبة: فالذكر يجوز على غير طهارة، وقد كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيائه، لكن الطهارة أكل وأليق.

٤- خفض الصوت في الأصل: لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، مع جواز الجهر أحياناً كما ثبت في بعض المواطن كالتلبية والتكبير في العيدين.

٥- الاستمرار والمداومة: فأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل، ومن الذكر ما هو مقيد بوقت أو حال، ومنه ما هو مطلق يشرع في كل وقت.

٦- تدبر المعنى قدر الاستطاعة: فلا يكون الذكر مجرد لقلقة لسان، بل يستحضر الذاكر معاني ما يقول من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير واستغفار.

استحضار القلب في الذكر

للقلب في هذا الكون منزلة لا يشاركه فيها عضو من أعضاء الإنسان؛ فهو، كما قال العارفون، مرآة صُقلت لتعكس نور الحق، فإن غشيتها الصداً حجبت الأنوار، وإن جُلّيت باستمرار الذكر أضاءت لصاحبها الطريق. وليس اللسان في هذا المقام إلا رسولاً يحمل عن القلب ما يعتمل فيه، فإذا خلا الرسول من الرسالة كان كلاماً يتردد في الفضاء لا يبلغ سماء القبول، وإذا حمل الأمانة كاملة صعد به الملك، وقيل: هذا ذكر حي لا ميت.

وقد فرّق أهل المعرفة بالله بين ذكر اللسان وذكر القلب تفريقاً دقيقاً لا يدركه إلا من ذاق حلاوته: فذكر اللسان حركة وصوت، وذكر القلب حضور وشهود؛ الأول يبلغه كل ناطق، والثاني لا يبلغه إلا من فرغ قلبه من منازعة الهوى والغفلة. ومن هنا قالوا: رَبِّ ذاكر لم يذكر، وَرَبِّ ساكت هو من أعظم الذاكرين؛ لأن مدار العبادة على ما وقر في القلب لا على ما جرى على اللسان وحده. ومع ذلك فلا يُستهان بذكر اللسان وإن غفل القلب أحياناً، فإن استقراره عادة يفتح للقلب باباً كان موصداً، والدُّرَّةُ قد تُستخرج من صدفة لم يُقصد إليها أول الأمر.

ولو تأملت في طبيعة النفس الإنسانية لوجدتها لا تثبت على حال؛ يعتريها السهو كما يعتري الماء الجاري ما يعكّر صفوه من غبار الطريق، فليس المطلوب من الذاكر أن يبلغ حضوراً تاماً لا يخالطه سهو، فذلك لا يطيقه بشر، وإنما المطلوب أن يكون الذكر مجاهدة متجددة: كلما سرح الذهن رده صاحبه، وكلما غفل استدرك، حتى يصير الرجوع بعد الغفلة عادة كما صارت الغفلة نفسها عادة عند الغافلين. وفي هذا التكرار وحده سرّ عظيم؛ إذ إن تكرار الفكرة أو المعنى في النفس، على ما يشهد به النظر في طبائع الأشياء، يحيلها من عارض طارئ إلى ملكة راسخة، فما يبدأ مجاهدة يؤول إلى طبع، وما كان تكلفاً يصير إلهاً وأنساً.

فمن أراد أن يستحضر قلبه في ذكره فليبدأ بثلاث: أن يعلم لمن يذكر، فإن استحضار عظمة المذكور أدعى إلى خشوع الذاكر، وأن يتدبر معنى ما ينطق به، فلا فرق بين ترديد لفظ لا يُفهم وبين نأمة صوت لا معنى له؛ وأن يجعل لذكره أثراً يتجاوز لحظته، فيمتد إلى خلقه ومعاملته، فإذا رأيت ذاكراً قد استقام لسانه واعوجّ خلقه فاعلم أن قلبه لم يحضر بعد، وإذا رأيت من قلّ لفظه لكن حسنت أخلاقه فاعلم أن الذكر قد بلغ منه محلاً كريماً وإن لم تسمعه.

من صيغ الذكر المطلق

سُبْحَانَ اللَّهِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ

اللَّهُ أَكْبَرُ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ

لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ

سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ



الباب الخامس: مشاهد من الذكر

ثمة حقائق لا يبلغ العقل كنهها بالتقرير المجرد، بل تحتاج أن تُرى في مشهد، وأن تُعاش في نفس، لتكشف كوامنها؛ والذكر من هذه الحقائق. وفي الصفحات التالية محاولة لتصوير الذكر لا كمفهوم يُشرح، بل كتجربة تُرى في قلوب بشر افتراضيين، كل منهم يمثل حالاً من أحوال النفس مع ربها.

المشهد الأول: الرجل الذي أفزعه صمت الليل

استيقظ في جوف الليل كما يستيقظ كل ليلة تقريباً، لا لصوت أزجه ولا لحلم أرقه، بل لذلك الفراغ الذي يعقب الغفوة الأولى، حين ينسحب النوم فجأة ويترك النفس وحيدة أمام نفسها. كان البيت ساكناً، والمدينة خلف النافذة تلمع بأضواء متباعدة كأنها عيون ساهرة لا تنام، وهو بينهما، بين سكون البيت وسهر المدينة، يشعر بذلك الثقل الغريب الذي يعرفه كل من عاش وحيداً مع أفكاره في ساعة متأخرة.

فكّر في يومه الذي انقضى، في الكلمات التي قلها ولم يكن ينبغي أن يقولها، في الفرص التي ضاعت، في الوجه الذي رآه في المرأة يزداد تجعداً عاماً بعد عام، وأحسّ بذلك السؤال الذي يتهرب منه الناس بالنهار بألف مشغلة، ويعاودهم بالليل حين تصمت المشغلات: ما قيمة كل هذا؟ إلى أين يمضي؟ ولم يكن يعرف جواباً، لا لأنه لم يفكر من قبل، بل لأن الجواب الذي يقنع في وضخ النهار يتهاوى في عتمة منتصف الليل حين يقف الإنسان عارياً من كل أقنعتة أمام حقيقته.

ثم، وكأن يداً خفية مدّت له جبلاً وهو يغرق، تذكر: "الله". لم تكن كلمة عابرة، بل كانت أشبه بيقظة داخل اليقظة؛ إذ انتقل فجأة من سؤال "إلى أين يمضي كل هذا؟" إلى استحضار من إليه يمضي كل هذا. تتم بلا صوت يكاد يُسمع: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم. لم يتغير شيء في الغرفة، ولا في المدينة خلف النافذة، لكن شيئاً تغيّر في داخله؛ ذلك الثقل الذي كان يجثم على صدره بدأ يخف، لا لأن الأسئلة أُجيبَت، بل لأنه لم يعد وحيداً في مواجهتها. وأدرك في تلك اللحظة معنى لم يكن يدركه من قبل رغم قراءته له مراراً: "ألا بذكر الله تطمئن القلوب"؛ فليست الطمأنينة غياب الأسئلة، بل حضور من يُسأل.

المشهد الثاني: العامل الذي لم يجد وقتاً

كان يعمل منذ الفجر حتى ما بعد المغرب، يداه مشقتان من احتكاكهما الدائم بالحديد والخشب، وظهره منحني قليلاً من سنوات الانحناء فوق آتته. لم يكن رجلاً يقرأ كثيراً، ولا يعرف من أمور الدين إلا ما تلقّاه صغيراً عن أبيه، لكنه كان يحمل في صدره سؤالاً بسيطاً ومؤرقاً في آن: كيف يذكر الله وهو الذي لا يملك من وقته دقيقة واحدة يفرغ فيها لغير عمله وأهله؟

ظل يقارن نفسه بمن يراهم في المسجد يطيلون الجلوس بعد الصلاة يسبحون ويهللون، ويشعر أن باباً من العبادة موصد دونه لضيق وقته وكثرة همومه؛ حتى قال له رجل كبير في السن كلمة غيرت نظرتة: "الذكر ليس وقفاً على من فرغ، بل هو رفيق من لم يفرغ". ومنذ تلك الكلمة، صار يردد "سبحان الله" وهو يرفع المطرقة، و"الحمد لله" وهو يمسح العرق عن جبينه، و"الله أكبر" حين يرى عمله وقد اكتمل، ويستغفر حين يخطئ في تقدير قياس أو يتأخر عن موعد؛ لم يتوقف عن العمل لحظة واحدة، لكن يومه الذي كان صامتاً من ذكر الله إلا في المسجد، صار كله ذكراً موزعاً على حركاته.

ولعل السر الذي اكتشفه هذا العامل، دون أن يقرأه في كتاب، هو ما يشير إليه واقع النفس البشرية: أن العادة لا تُبنى بالكثرة المرة الواحدة، بل بالقلّة

المتكررة؛ فالكلمة الواحدة إذا تكررت مع كل ضربة مطرقة، أو كل نفس بين حركتين، تسربت إلى العمق دون أن يشعر صاحبها، حتى أصبحت جزءاً من إيقاع حياته كما يصبح النفس جزءاً من إيقاع الجسد، لا يُحصى ولا يُستحضر عناءً، بل يجري جرياناً.

المشهد الثالث: المرأة التي انتظرت خبراً

جلست عند الهاتف تنتظر اتصالاً يخبرها عن نتيجة عملية جراحية لابنها، والدقائق تمر أثقل من ساعات، وكل صوت يأتي من الممر تحسبه الخبر الذي تخشاه أو ترجوه. لم تكن امرأة تتحدث كثيراً عن إيمانها، لكنها في تلك الساعات وجدت لسانها يتحرك بلا إرادة واعية منها: "يا حي يا قيوم"، "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين"، عبارات تعلبتها في طفولتها ولم تكن تظن أنها محفوظة في مكان ما من ذاكرتها حتى استدعتها ساعة الشدة.

وحين جاء الخبر أخيراً، وكان طيباً، لم يكن أول ما فعلته أن تنفست الصعداء بصمت، بل أن قالت بصوت مسموع: الحمد لله. وفي تلك الكلمة القصيرة تكثف كل ما عجزت الساعات الطويلة عن التعبير عنه؛ فليس الحمد هنا مجرد أدب لغوي يُقال عند الفرح، بل هو اعتراف عميق بأن الأمر كله كان بيد غيرها،

وأنها إنما كانت تنتظر لا تملك، وتدعو لا تقرر. ولعل هذا هو الفرق الدقيق الذي يميز ذكر أهل اليقين عن ترديد الألفاظ: أن الكلمة حين تخرج من قلب يعرف حقيقة عجزه أمام قدرة الله، تحمل من الصدق ما لا تحمله حين تخرج من لسان غافل، وإن اتفق اللفظان حرفاً حرفاً.

المشهد الرابع: البحار في قلب العاصفة

انقلبت السماء فجأة من صفاء إلى سواد، وارتفعت الأمواج كالجبال الزاحفة، تضرب جانب السفينة كأنها تريد ابتلاعها. صرخ الرجال، وتقاذفتهم الحبال والصناديق، وسمع الريان صوته يضيع في هدير الريح وهو يأمر بخفض الشراع. وفي زاوية من السفينة، تشبّت بحارٌ عجوزٌ بجبل غليظ، ولم يصرخ كما صرخ الشبان حوله، بل أخذ يتمم بكلمات كان قد نسي أنه يحفظها: "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين"، يرددها مع كل موجة تضرب وجهه بملح البحر البارد.

لم يكن يعرف، وهو يقاوم الموت اللحظة تلو اللحظة، أنه يعيد بالضبط ما عاشه إنسان قبله في بطن حوت، حين لا حيلة ولا معين إلا صوت خافت يخرج من أعماق الكرب. وفجأة، وسط ذلك الرعب الذي يكاد يذهب العقل، أحسّ

بشيء غريب: لم تهدأ العاصفة، ولم تخفّ الأمواج، لكن يده التي كانت ترتجف بدأت تثبت على الجبل، وصدره الذي كان يلهث بدأ يستعيد بعض هدوئه. لم يكن الذكر طليماً يوقف العاصفة، لكنه كان مرساة للقلب وسط عاصفة الجسد، وفارق هائل بين من يواجه الموت وحيداً وبين من يواجهه وهو يعلم أن ثمة من يسمعه فوق هدير كل تلك الأمواج.

المشهد الخامس: الأسير في عتمة الزنزانة

لم يكن يعرف كم مضى من الوقت؛ فالزنزانة لا نافذة فيها تُحصى له الليل من النهار، ولا صوت يبلغه من العالم الخارجي إلا خطى الحراس المتباعدة. في الأيام الأولى حاول أن يحصي الساعات، ثم استسلم لإحصاء أنفاسه بدلاً منها. كان الجدار البارد رفيقه الوحيد، وكانت الأفكار السوداء تتناوب على قلبه كضيوف ثقلاء لا يُستأذنون في الدخول: الندم على أخطاء الماضي، والخوف من مصير مجهول، والغضب الذي لا يجد له متنفساً.

وفي ليلة من تلك الليالي المتشابهة، حين بلغ به اليأس مبلغاً كاد يطفئ فيه كل رغبة في الاستمرار، وجد نفسه يهمس في العتمة: "يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث". لم يكن يذكر متى تعلم هذا الدعاء، ولا من علمه إياه، لكنه خرج من

فه كآئه كان مطمورا تحت ركام السنين ينتظر لحظة الانكشاف هذه بعينها. وشيئاً فشيئاً، صار هذا الهمس عادته الليلية، يحدث ربه في عتمة لا يشهدها أحد سواهما، حتى صارت الزنزانة نفسها -المكان الذي سُلبت فيه كل حرياته- هي المكان الذي وجد فيه أعمق حرية عرفها في حياته: حرية القلب حين يتصل بمن لا تحجبه عنه الجدران ولا القضبان.

المشهد السادس: الطبيب في ليلة المناوبة الطويلة

كانت الساعة تقترب من الثالثة فجراً حين دخل المريض الثالث تلك الليلة في حالة حرجة، ووقف الطبيب الشاب فوق الجسد الذي تنقلص أنفاسه شيئاً فشيئاً، يصارع بكل ما تعلمه من علم لينع خيطاً رقيقاً من الحياة من الانقطاع. كانت يداه ثابتتين بحكم التدريب، لكن قلبه كان يخفق بعنف لا يظهر على وجهه؛ فهو يعرف حدود ما تستطيع يداه، ويعرف أن ثمة خطأ فاصلاً بين الحياة والموت لا يملك هو رسمه ولا محوه، وإنما يقف على حافته يذل ما استطاع.

وفي تلك اللحظة الحرجة، وبين أمر وآخر يصدره لفريقه، وجد شفثيه تحركان بصوت لا يكاد يُسمع: "يا رب... يا رب"، لم تكن كلمة بحث عنها، بل

خرجت منه كما يخرج النفس، بلا تدبر ولا تصنع. وحين استقر المريض أخيراً وعادت الأجهزة إلى إيقاعها الطبيعي، جلس الطبيب للحظة على الكرسي القريب، منهك القوى، وهمس: "الحمد لله"، بصوت لم يسمعه أحد من فريقه المنشغل، لكنه كان أصدق كلمة قالها في تلك الليلة الطويلة؛ فهو يعلم، كما يعلم كل من وقف على حافة تلك اللحظات، أن يده كانت أداة، وأن اليد الحقيقية التي أمسكت بذلك الخيط الرفيع من فوق كانت يداً غير يده.

المشهد السابع: الشاب الهارب من نفسه

كان يمشي في الشارع المزدحم وحيداً وسط الزحام، وهذا بحد ذاته كان يشبه حياته: وحدة كاملة وسط ضجيج لا ينقطع. سنوات مضت وهو يهرب من شيء لا يستطيع تسميته، يملأ وقته بكل ما يُنسيه ولو للحظة ذلك الصوت الداخلي الذي يذكّره بأخطاء اقترفها وعلاقات دمرها وفرص أضاعها. كان الهروب مرهقاً أكثر مما يتخيل أحد؛ فكل ليلة يعود فيها إلى غرفته الفارغة، يجد ذلك الصوت قد انتظره هناك، صبوراً، لا يكل من الانتظار.

حتى جاءت ليلة لم يعد فيها يحتمل الهروب أكثر، فجلس على حافة سريره في الظلام، وقال بصوت متهدج لم يعرف من أين استمده: "أستغفر الله". لم يكن

يتوقع شيئاً، ولم يكن حتى متأكداً أنه يستحق أن يُسمع، لكنه كررها، مرة ثم أخرى، حتى تحولت الكلمة من محاولة يائسة إلى بكاء صامت يهزّ كتفيه. لم تُحَ أخطاؤه في تلك الليلة بضربة واحدة، ولم يستيقظ صباحاً إنساناً آخر كلياً، لكن شيئاً جوهرياً تغَيَّر: لأول مرة منذ سنوات، لم يكن يهرب من ذلك الصوت الداخلي، بل كان يتحدث إليه، أو بالأحرى، يتحدث من خلاله إلى من يملك وحده أن يحو ما لا يُحَى بغيره؛ وفي هذا الفارق الدقيق بين الهروب والعودة تكمن كل قصة التوبة التي عاشها كثيرون قبله ولم يرووها لأحد.

المشهد الثامن: العجوز في محطة القطار

جلست على المقعد الخشبي في المحطة تنتظر قطاراً تأخر مواعده، وحقيبتها الصغيرة إلى جانبها تحمل كل ما تبقى لها بعد أن ودّعت بيتها الذي عاشت فيه أربعين عاماً. كانت وحيدة الآن، بعد أن رحل زوجها، وتفرّق أبنائها في مدن بعيدة، وذهبت أيام الصخب والضجيج التي ملأت ذلك البيت يوماً بضحكات الأطفال. كان يمكن لمن يراها أن يظنها صورة للوحدة الكاملة: امرأة عجوز، محطة باردة، انتظار لا نهاية واضحة له.

لكن من يقترب أكثر كان سيسمع شفقتها تتحركان بلا توقف: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، حبات مسبحتها الصغيرة تنتقل بين أصابعها المتجعدة بإيقاع هادئ لم يتغير منذ خمسين عاماً، منذ علمتها أمها إياه وهي طفلة. لم تكن تلك المرأة، في حقيقة أمرها، وحيدة كما تبدو؛ فبينما كان العالم من حولها يتغير ويفقد ويهرم، ظل ذلك الإيقاع الهادئ رفيقها الذي لا يشيخ ولا يرحل ولا يتغير، وكانت في داخلها -رغم كل ما فقدته- أكثر الجالسين في تلك المحطة سكينة، لأنها الوحيدة بينهم التي تعرف إلى من تتجه، وسط كل هذا الانتظار الغامض الذي يعيشه الجميع.

وفي هذه المشاهد المتعددة -على تباين أصحابها وأحوالهم من عاصفة بحر إلى عتمة زلزلة، ومن غرفة عمليات إلى محطة قطار- خيط واحد يجمعها: أن الذكر ليس طارئاً يُستدعى عند الحاجة فحسب، ولا رفاية يتفرغ لها من ملك وقته، بل هو ذلك الحضور الخفي الذي يملأ الفراغات بين لحظات الحياة، ويحوّل العاصفة والعتمة والانتظار والهروب من فراغ موحش إلى لقاء متجدد مع من لا يغيب.



الباب السادس: من أذكار النبي ﷺ

كان النبي ﷺ أذكر الخلق لله، توزعت أذكاره على أوقات يومه وليلته: عند الاستيقاظ والنوم، وأذكار الصباح والمساء، وأدبار الصلوات، وعند دخول المنزل والخروج منه، وفي كل شأن من شؤونه. نذكر هنا نماذج مما صح عنه ﷺ.

عند الاستيقاظ من النوم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ

رواه البخاري

من أذكار الصباح والمساء

أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمَلِكُ لِلَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،
لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

رواه مسلم — ويقال في المساء: أمسينا وأمسى الملك لله

اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ

رواه الترمذي، حسنه الترمذي — ويقال في المساء: وبك أمسينا وبك أصبحنا

اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ
وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ،
وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ

سيد الاستغفار، رواه البخاري

عقب الصلوات المكتوبة

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ (ثلاثاً)، اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا
الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ

رواه مسلم

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ
مِنْكَ الْجَدُّ

رواه البخاري ومسلم

ثم يسبح ثلاثاً وثلاثين، ويحمد ثلاثاً وثلاثين، ويكبر ثلاثاً وثلاثين، ويختتم المئة
بقوله: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء
قدير. كما ثبت في صحيح مسلم.

وصية النبي ﷺ لمعاذ بن جبل

«يا معاذ، والله إني لأحبك، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعن دبر كل صلاة
تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»

رواه أبو داود والنسائي (صححه الألباني)

اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ

عند دخول المنزل والخروج منه

بِسْمِ اللَّهِ وَلَجْنَا، وَبِسْمِ اللَّهِ خَرَجْنَا، وَعَلَى اللَّهِ رَبِّنَا تَوَكَّلْنَا

رواه أبو داود

بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ

عند الخروج، رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني

عند النوم

بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا

رواه البخاري

اللَّهُمَّ أَسَلْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ،
رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، أَمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي
أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ

رواه البخاري ومسلم



الباب السابع: من هدي الصحابة والتابعين في الذكر

اقتدى الصحابة رضي الله عنهم بنبيهم ﷺ في المداومة على الذكر، حتى صار سمياً بارزاً في سيرتهم وسير من بعدهم من التابعين، ومن ذلك ما نُقل في كتب السنة والسير:

• الذكر الجماعي بعد الصلاة جهراً: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كنت أعرف انقضاء صلاة النبي ﷺ بالتكبير"، وهذا يدل على أن رفع الصوت بالذكر عقب الصلاة كان معروفاً في عهده ﷺ ليتعلم الناس صيغة الذكر، رواه البخاري ومسلم.

• عدّ التسبيح بالحصى والأنامل: ثبت عن النبي ﷺ نفسه أنه أمر بعقد التسبيح بالأنامل فقال: "واعقدن بالأنامل فإنهن مسؤولات مستنطقات"، رواه أبو داود والترمذي، وقد اقتدى بذلك جمع من الصحابة والتابعين في عدّ أذكارهم.

• أبو الدرداء رضي الله عنه: اشتهر عنه حرصه على مجالس الذكر وتعليم الناس، وكان من القائلين بأن "الذاكر لله في الغافلين كمثل الشجرة الخضراء في وسط الشجر اليابس".

• عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كان يقول لأصحابه في مجالسه: "اذكروا الله ذكراً يعرفكم" مرشداً إلى أن الذكر الحقيقي هو ما ترك أثراً في السلوك والخلق لا مجرد اللفظ.

• التابعون وحلق الذكر: عُرف عن التابعين كسعيد بن جبير والحسن البصري رحمهما الله حرصهم على مجالس الذكر وتذكيرهم الناس بالله، وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: "أكثرُوا من ذكر الله فإنه دواء، واذكروا الموت فإنه كفى بالموت واعظاً".



الباب الثامن: فوائد الذكر

اعتنى أهل العلم بجمع فوائد الذكر وثمراته، ومن أشهر من صنّف في ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه "الوابل الصيّب من الكلم الطيّب"، حيث عدّ للذكر فوائد كثيرة نجمل أبرزها:

1. يطرد الشيطان ويدحره ويكسره، وهو من أعظم أسباب النجاة من وسوسته.
2. يُرضي الرحمن عز وجل.
3. يُذهب الهمّ والغمّ عن القلب، ويجلب الفرح والسرور.
4. يجلب للقلب قوة يستعين بها على مصالح دنياه وآخرته.
5. يورث محبة الله تعالى، وهي روح الإسلام وقطب رحي الدين.

6. يورث المراقبة، حتى يدخل صاحبه في باب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه.

7. يورث الإنابة إلى الله والرجوع إليه في كل الأحوال.

8. يورث القرب من الله، فبقدر ذكر العبد لربه يكون قرب منه.

9. هو سبب في ذكر الله للعبد، لقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

10. هو حياة القلب، وقد شبه ابن القيم الذكر بالماء للسمك، فإذا فارقه مات.

11. هو غذاء القلب والروح، فإذا فقد القلب صار كالبدن الذي فقد غذاءه.

12. يجلو الصدأ عن القلب الذي يعتريه من الغفلة والذنب.

13. يذهب عن القلب وحشة التفرد والانقطاع، ويؤنس بالله.

14. يورث صاحبه هبة الله وإجلاله في القلب.

15. يفتح للعبد باباً عظيماً من أبواب المعرفة بالله.

16. يورث الطمأنينة والسكينة كما نصّ عليه القرآن.

17. هو أيسر العبادات وأجلّها، إذ لا يشترط له طهارة ولا حال معينة.

1. هو نور للقلب والوجه، والدنيا والآخرة.

1'. يعصم العبد من الوقوع في الغيبة والنميمة واللغو، إذ اللسان لا يعمل عملياً في آن واحد.

2'. يكون سبباً في نزول السكينة، وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة، وذكر الله للذاكرين في الملأ الأعلى.



الباب التاسع: فوائد الورد اليومي من الذكر

الورد هو الحظ المقسوم من العبادة يلتزمه العبد في وقت معلوم من ليله أو نهاره، ولا يخل به إلا لعذر، وقد كان هذا هدي السلف الصالح في عباداتهم، وللمداومة على ورد يومي من الذكر فوائد عظيمة:

١- الثبات على الطاعة: فأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل، كما ثبت في الصحيحين، والورد يعود النفس على الاستمرار بدلاً من الانقطاع بعد الحماس العارض.

٢- حفظ اللسان من اللغو: فمن اعتاد وقتاً معلوماً للذكر شغل لسانه عما لا يعنيه في ذلك الوقت، وتعدى أثر ذلك إلى بقية يومه.

٣- تراكم الأثر مع الزمن: فالذكر القليل الدائم خير من الكثير المنقطع، إذ إن أثر الذكر في القلب يتراكم شيئاً فشيئاً حتى يصبح سجية وطبعاً لا يحتاج معه العبد إلى مجاهدة كبيرة.

٤- حصانة من الغفلة: فالورد اليومي، خاصة أذكار الصباح والمساء، يجعل العبد في حرز من كيد الشيطان وشروبه طرقي النهار.

٥- تنظيم الوقت وضبط النفس: فالالتزام بورد في وقت معين يُعين العبد على الانضباط في سائر شؤونه، ويكسر عادة التسويف.

٦- اجتماع القلب واللسان بتكرار الطلب: فتكرار الذكر اليومي يرسخ معانيه في القلب حتى يصير حقيقة راسخة لا مجرد لفظ عابر.

٧- اقتداء بهدي النبي ﷺ: الذي كان له أذكار موزعة على أوقات يومه لا يخل بها، فالمداممة عليها اتباع لسنته صلى الله عليه وسلم.



الختامة

وبعد، فهذه جولة موجزة في باب عظيم من أبواب العبودية، باب لا ينقطع بانقطاع الأسباب، ولا يشترط له حال دون حال؛ فالذاكر لله في كل أحيانه في عبادة متصلة، وإن لم يقيم ولم يركع ولم يسجد. وإذا كان القرآن الكريم قد سمي نفسه "ذكراً"، وكانت الصلاة إنما سُرعَت لإقامة ذكر الله، وكان أفضل ما قاله النبيون من قبله ﷺ لا إله إلا الله، فحسبنا ذلك دليلاً على مكانة هذه العبادة وعظم شأنها.

نسأل الله عز وجل أن يجعل ألسنتنا رطبة بذكره، وقلوبنا عامرة بحبته، وأن يحشرنا في زمرة الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



المراجع

أولاً: القرآن الكريم

1. القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم، وفق الرسم العثماني المعتمد.

ثانياً: كتب الحديث النبوي

1. البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري).
2. مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ (صحيح مسلم).
3. أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود.
4. الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الصحيح (سنن الترمذي).

5. النسائي، أحمد بن شعيب، السنن الصغرى (المجتبى).

6. ابن ماجه، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه.

7. أحمد بن حنبل، المسند.

ثالثاً: كتب الأذكار والتزكية

1. ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، الوابل الصيب من الكلم الطيب.

2. النووي، يحيى بن شرف، الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار.

3. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري.

4. النووي، يحيى بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج.

ملحوظة: التزمنا في الأحاديث المروية بذكر درجتها ومصدرها عند إيرادها، فما كان في الصحيحين أو أحدهما فهو صحيح بذاته، وما رُوي عن غيرهما أشرنا إلى من صححه أو حسّنه من أهل العلم.